

يوميات قلعة المنفى

عبد اللطيف اللبني

اكتب ، اكتب ، لن اتوقف أبدا . هذه الليلة وكل الليالي القادمة

ها آنذا وجها لوجه مع نفسي ، دقت ساعة المحاسبة . خلعت بزتي . لم أعد الماسح لفضاء محدد ، لجولة منتظمة . لم أعد اخضع لبؤس الايام . تركت رقمي خلف الباب .. الآن ، انتهيت من الشرب ، الأكل ، الحاجيات ، انتهيت من الحديث الذي يسمى الاشياء بمسهيئاتها المستهلكة . أدخلت سجانرا لا منتهية ، دخانها يخرج من الرئتين على شكل شظايا سلاسل ، دوائر مرة من الرفض ، بدأ ليل السجن بينتلع أضواء النهار . لاصطناعية . نجوم شعناء تغمر قبة الرؤى .

اكتب

عندما اتوقف ، يتحول صوتي عن أصله ، كان نغمات خفية تتسلق أوتاره ، مدفوعة بأعاصير غريبة ، قادمة من كل المناطق التي تتقابل فيها الحياة والموت ، يتناظران ويتراقبان ، وحشين بالوان متجددة ، كل منهما يتجمع ، يستعد للوثوب ، لتدمير المبدأ الذي يؤسس الآخر .

اكتب

لا يمكن أن احيا دون أن انفصل عن نفسي ، دون أن اجثث نقط القطيعة والالهام من ذاتي ، حيث اشعر اكثر بالتمزق والصدمة ، حيث انشطر لاعيش في فضاءات لا تحصى : الأرض ، الجذور ، عفوان الاشجار ، الفوران البارز في وجه الشمس .

اكتب

عندما نتلاشى الالهبالاة ، ويحدثني كل شيء عندما تهناج ذاكرتي وتنتقدم امواجها حتى تنكسر على شاطئ عيني .

امرق النسيان وانجس مسلحا كي احصد بكون هوادة ما يلحق بي لحق بي .
تمهل ايها الانفعال ، تمهل يا انكساري مما ينفلت ، ايا جهوح الوجود تمهل .

اكتب

عندما يستحيل علي أن اكتفي بمجرد التفكير فيك . ويدي من غيابك لم تعد
تطبيق الاحتراق عندما تراودني الذكريات : نفسك المنتظم او اللاهث ، رائحة
شعرك ، لا نهائية كنتك ، صمناك ذلك الذي احزوه وهو يصب بنوعه في ذاتي
كل نلون حساسينك . تحركين يدا ، تجمعين او تفرقين ساقيك ، ترجف
أفخاذك ، واعلم علم اليقين الرغشة الخفية التي تخترقك ، الوقت الذي يضايقك
فيه الضوء ، اللحظة التي تتشبهين فيها التسييم وهو يولد ، الصورة ، نعم
الصورة السريعة التي وشوشت قزحية عينيك . أسأل نفسي : كل هذه
السعادة ، هل هذا ممكن ؟ ها قشعيرة تسري في ساعدك الايسر ثم تفغبرين
من جديد في اللجة المتبادلة التي تهدهنا .

تمهل ايها الحنان . تمهل يا نهم اليقين ، ايا حلمي المدمر للبكم تمهل .
اكتب ، اكتب . لن اتوقف ابدا .

عشر سنوات . ما معنى عشر سنوات في معادلة الحياة ؟ كان الوقت فجرا ،
وأنا في جوف حرارتك . متى نمت ؟ متى دخلت ؟ ثم جن الجرس . كادوا أن
يحطمو الباب بقبضاتهم . تأكدنا في الحين . قفزت من السرير ، اطلت من
النافذة ، وبخدر ازحت قليلا الستار . كانت السيارة السوداء في الاسفل ،
واقفة في شارع ، مظافة الأنوار . لا سبيل للشك . ثم شرعنا في النهيؤ ،
كاننا مقبلين على سفر طويل . كان الجرس يجن . كادوا أن يحطمو الباب
بقبضاتهم .

اكتب

ما من حل أمامي سوى أن اكتب . فكرت فوق الاحتمال في تلك الرغبة التي
تحاصرني ، منذ مدة قديمة ، والتي تجعل الواقع الذي ينزأى لي هو دائما في
خدمة واقع آخر قادم ، تلك الرغبة التي تجعل الحاضر مشروعا مستمرا ، مجالا
أراكم فيه المادة ، ادوات صرح لا أعرف عنه شيئا في البدء ، ولا استطيع أن
اتصوره الا نبضا لغضبي جديد يسكنني ، ينمو بايلام في داخلي وينظم وظيفته
شيئا فشيئا . كيف أذن اسمي هذا التجسس اليقظ الاهوس للواقع ؟ حلقته
هي هذا المسرح . تعريض لنضالاتنا ، آلامنا ، ابادتنا وانبعاثنا ، لكل حيوية
تطوى تحت نير الصمت ، كل الصرخات السرية ، لكل الذاكرات المقطوعة

الرأس .

فكرت فوق الاحتمال في تلك الرغبة التي تحاصرني . ولكن تمهل يا صحوي ،
ايا شراستي ضد ظلمات العجز تمهلي .

اكتب

ذلك الصباح الفارس من صباحات يناير . يومي الاول في المنفى .
كنت مهددا على لوح . قيدوا الرجلين واليدين . خرقة كانت تغطي وجهي كاملا ،
والماء يندلق ، يخترق الملابس الداخلية ، ينصب في الانف ، يستحيل شربه .

- صب بكمية قليلة ، كان احدهم يخاطب الآخر

- وانت ، اضبط رأسه لصيقا باللوح ، كان الصوت نفسه يوشوش .

- صب مرة أخرى ، زد قليلا ، كان الصوت يحرض .

- يكفي الآن ، هكذا كان الصوت ينهي كلامه

- وكاننا امام برهنة حول مائدة تشريح ، « الضمير المهني » ، الحرص على
العمل « التقى » ، المنتقن .

لم أكن أراهم . فقط ، كنت اسمع الاصوات تأتيني من مسافات متباعدة ، ووقع
الاحذية وهي تنترجر على الارض . كانت الايدي اللزجة تضغط على رأسي فوق
اللوح ، اختنق ببطء ، افكر بسرعة المقاومة والموت المترقب . هكذا كنت .
ولكن أي صورة ، أي وميض لفكرة هذا الفيض يستطیع أن يعكس اتساع هذه
اللحظة ان كان خيط الحياة يمتد ، يرق ، كحبل غسيل شد من طرفيه بعنف ،
حتى وصل الحد الذي تبدأ فيه الخيوط بالتفسخ واحدا واحدا .

اكتب ، لن اتوقف

في كل لحظة علي ان اغالب هذا الضيق ، هذا الاحساس باللاجدوى الذي
يشلني احيانا . هل يمكن ان نكتب ، نكتفي بالكتابة لخلخلة جبروت حالة
الحصار في الوقت الذي يصبح فيه كل طريق فحاً ، ومراكز التعذيب نعلان عن
اكتظاظها ، وشعب باكملة يفرغ يوميا من دمه . تعرض البلاد للمزاد العلني .
مجزاة باحجام مختلفة الى قطع الماخور ، قواعد الاغتيال ، لحم - شحم للالات
أيدي العبيد .

وما عساني أن أقول مما لا يمكن لرجل لشارع ، لآخر مراهق ملقى على رصيف
البطالة والمناه أن يدركوه ويتبينوه كالوجه الادكن للتماسة الاليفة : انتظار ،
عصي ، احتقار ، رصاص ، ضغينة صلدة .

ولكن تمهل يا هول الشك . تمهل يا غثياني ، ايا بركاني المتطرف .

تمهل .

اكتب

هذا الليل امامي ، جديدي بصمته ، كلمات تنبت ، تنتظم ثم تحضر
لمعانقة نفسي ، تهيكله صوتا . ما احلى ان ادخن .
في البعيد يصفر قطار . يقترب ، سرب حياحب لا مرئية . حرارة في الحافلات .
البار مزدحم بالمستهلكين . مسافرون يغفون في اطلالهم المرتجة .
قطار آخر ينفصل عن القطار الاول ، يعبر سهول الاندلس ، يعيد لي غرناطة .
نحن معا في غرناطة . كل شيء كان عجبيا . نكبي على مشرب لتناول كاس
صغير من الخيريذ ، نشابك ابيدنا ، نتهجى اسماء الازقة ، نتامل الخطاطين ،
حفظة ميراث الحمراء ، وهم يشغلون في دكاكينهم ، نسال المارة عن طريقنا ،
هؤلا الذين ينقل لك مجرد الحوار البسيط معهم رعشة الاخوة ، ننام ، نصحو
بنفس درجة الامتلاء . غرناطة التي كان فيها حبنا قويا الى درجة التمزق .
في البعيد يصفر قطار ، يخترقني ، ينفصل عن نفق جسدي . ومن جديدي يخيم
الصمت الذي لا يقطعه سوى نباح خجول لكلب لا شك انه انزعج في غفوته .

اكتب

يوما بيوم الملزومة . معتقل ! ما معنى ذلك ؟ زنازنة لها تمام صفات الزنازنة :
متران ونصف (طولها) متر ونصف (عرضها) . انه تكعيب قانوني على ما
يبدو . جدران مجيرة بشحة ، زجاجة ترشح ببؤس واطائها الخمسة والعشرين
مدفونة في الجدار ، محفوظة في زجاج (منع) سميك . مرحاض تقليدي وفوقه
صنبور من النحاس . النافذة الصغيرة القانونية وبها قضبان من النوع الجيد ،
لا تنقل عنها قانونية في سمكها المحترم . رف صغير (يا للبخ !) يمكن
« للنزيل » ان يرتب عليه حوائجه . قبالتنا الباب الرمادية بفتحها المغلقة
بواسطة نظام اغلاق حادق يتكون من صفيحة معدنية ذات مزلفة هي نفسها
متقنة بنظام اغلاق آخر مركب من خيط حديدي يهر بحلقة عند منتصف الصفيحة
ليجدها في الاسفل . لنا في الاخير مصطبة على شكل بناء مطلي بالاسمنت
يحتل بفخامة نصف الفضاء ويستقبل الفراش . هنا يعتلي للنزيل عرشه ،
ينام ، يحلم بكوايبسه ، وفي بعض الحالات يقرر الانتحار بعدما يئنه في سرداب
من الهذيان والاستدلالات الفامضة . نحن طبعاً في « السجن المركزي » جوهره
العقد بين معتقلات بلاد الشمس

اكتب

يوما بيوم الملزومة . ونقيضها يوما بيوم . تتعشى السماء الخيالية للخرساء

بأفواج سحب يقظ مكذ ، نستعرض ملحمة الأرض ، والشمس تقفز فوق
الأسوار ، تطيح بالغبش ، تظمنن على الربيع الوشيك ، يتحرك الهواء مفعها
بالبشارات المتداخلة ، ولعصافير التي لا يمسه القمع تنتشر قرابين الوانها ،
تنشي ، تنتاسل ، تتعلم كيف تطير ، توجه صوب الاعين مرأيا مشنطة
تذعكس عليها مسيرة الحياة . واذا يمتلي الحلم ، يتحول رؤيا عضوية لها
يقضي به الصحو . نعم ، المستقبل أصبح أكيدا ، انه يشع ، يشبع الحاضر
بمادينه . يوما بيوم تلك الآية المتجلية في العيش ، التحول ، الحب . الامل
القوي ، معرفة السعادة ، الغاء العزلة ، النبض بايقاع قلب العالم ، كل ذلك
داخل نفس القلعة المنصوبة للموت البطي ، الانحطاط ، الخنوع الجماعي ،
الصلافة ، الحزن المنوحش ، المنفى الانساني . علينا اذن لم الاشلاء المبعثرة ،
من دائرة لأخرى ، علينا التوجه نحو هذا الغزو الجديد لاعمالنا .

اكتب ، اكتب ، لن أتوقف

رحلة نحولنا . من شاهدي الآخر لمسنازمات العشق ؟ كيف أفرق في هذا التراث
المشترك بين القرابين الفاتنة التي حملتها لي والمهدايا الجموحة التي وضعنها
بين يديك ؟ ما الذي يؤسس العشق ، يجدهه باستمرار ؟ ما الذي يحيله فجعا ،
سورا من لعمى والانانية ؟ ما الذي يكسره عندما يجري ككل غدران الوجود
اللاواعية ، وما الذي يحييه من الرماد والجلود الهرمة للرجال والنساء الغابرين؟
كثيرة هي مناطق الانسان التي تحتاج للبعث ، كم من نوافذ عليه ان يفتحها
في قلبه ، كم من قدرات لا زالت لم تنعق من الكهف الجبدي .
ولكن الاصعب من كل ذلك هو القدرة على الحيلولة دون زرع اوهام جديدة
في الوقت نفسه الذي نتخلص فيه من اوهامنا القديمة ، لان العشق قارة هشة ،
ما زالت في طور التكوين ، تضيئها شمسها الخاصة ، قارة نخطو فيها
خطواتنا الاولى . واذا كنا نعرف جيدا الرحلة التي قادتنا اليها ، يبقى لنا ان
نكتشف الكثير ، ورحلات أخرى تنتظر .

اكتب

هل المحنة وحدها هي التي صنعت منا ما نحن اصبحنا عليه ، في وشيجة
الواحد منا للآخر ، علانقنا بالآخرين ؟ قبل ذلك كانت المعرفة والام ، اللعنة
وعقم الدوس . كنا نركن للصمت والتفوق كلما صعب علينا . فهم ، كنا نحقل
منتشين عندما كان خيط من لنور يبشرنا بمحتوى آخر للحنان ، يعضد حيرتنا
يفتح لنا الطريق لمرحلة لم نعبرها . ثم بدانا نتكلم بقدر ما كان العالم يبدو
من حولنا أكثر واقعية ، بقدر ما كان الشعر يؤنسنا ، بقدر ما كان شعبنا ،
بفضل تضالته وتضحياته يمنحنا وطنا قابلا للحياة ، بقدر ما كنا نستيقظ

بدورنا للعطاء . كل هذه الرحلة التي اكتشفنا في نهايتها أن ابيدنا تتشابه بشكل خارق ، حيث اكتشفنا الاخوة .

اكتب

من جديد هذا الليل الذي لا قياس له . فجأة تنبثق طائرة من جوف الصمت . ينفجر دويها كارغونات جووية معطلة .. لا شك انها تنهيا للتزول ، لماذا اشعر بكل هذه الحدة ؟ وجسمي كصندوق مكهرب من الاصداء . هل ترين ؟ ادنى شيء ينفجر في خلدي حضورك ، ما ليس مجرد ذكرى عابرة بل تجربة معيشة تزلزلي وأنا على فراشي الحقيير ، تضغط على حنجرتي ، تدفعني لتترك القلم . وبآلية اشعل سيجارة ثم ارحل في هذا الفضاء المتقاطع الذي يتحدى الزمن حيث نسير ، مغممين ، جنباً الى جنب .

اكتب

هل اعترف ؟ انني لا املك الا ثقة نسبية في الكلمات ، حتى عندما اتلمس جميع أوجه معانيها ثم اتلفظها بصوت مرتفع لاتبين من عدم تصدع رنتها ، انزلاقها في تراكيب الحذقة ، عندما اركبها وانظمها ، اجدني اعيد قراءتها واعيد حتى اتأكد مرة أخرى من أن ما كتبتة ليس معتما ولا غريباً عن الاعماق المشتركة لعذابتنا وآمالنا . بهذا الحجم تأخذ الكتابة مسؤوليتها . وبمجرد ما اتحملها (آه نعم اتحملها !) يستحيل على أن أتهرب أو أن ارضى بالجزئيات . يجب أن اصبح قادراً على الدفاع عن كل كلمة ، كل جملة ، وإذا امكن يجب ان اعمل على ان تستقل كلماتي بالدفاع عن نفسها حين نتوجه الى حساسية كل واحد منا لتتفاعل معها مثل تلك الفرقة الاليفة للمطر الذي لا تستغنى عنه الارض . مثل تلك الحشود من الورود الغربية التي يجهض غيابها الربيع . ولكن تهمل يا عبادي ، ايا شيطان الشعر العقلاني تهمل .

اكتب ، اكتب ، لا يمكن ان اتوقف . هذه الليلة وكل الليالي القادمة .

ليلة أخرى لا املك فيها سوى الكتابة . اصطدم بهذا الصمت الذي يتحداني بلغة المنفى . انتصب بكاملني للغور في صوت الليل للمخيم على السجون . انصت ، وشيئا فشيئا النقط تناغمه ، اعبر مداه ، استقبل اصدااء الدامية وكانها تاتيني معكوسة . اطارد الصمت ، نترع منه الضجة العانية التي تحطم حواجزه ثم تنهشم بدوي اخاذ قبل ان تتبعثر في ثنايا الليل . ياتيني الوطن ، نشيدا فضائيا ينهض من عمق التاريخ : مسبكا من التومج والعرق ، عضلات مزينة وه يرتدق سندان المادة المتمردة ، بذور ، حصاد ، خبز وزيتون اسود ، طفاوة الشاي المحرق ، الذي ينقل كاسه من يد لآخرى .

مزمار وطبول وهي تهز الازفة في مواكب مبرقشة ، ضحكات ورجرجات الاطفال
 المفتشين بالموسيقى والمطور ، عراقيب حمر لراقصات وهن يعنكين موائد
 مستديرة ، يوقعن بالارجل ، والنهود تهتز كرمان ناضج بالنضارة ، جنون
 آلات القرع ، موسيقيون هائمون ، يذبحون الكمنجات الساخنة ، يصعقون
 الطبلات ، يبقرون العيدان البدينة ، المشتعلة بكل زخارفها . صمت طويل
 ثم يعود لي الوطن متلوف الوجه ، مشوها ، صرخات هنا وهناك ، صرخات
 عراق ، افتضاض ، اغتيال ، صرخات اطفال عيونهم زائفة وهم يجلبون
 ليتعلموا الصمت ، صرخات الجنائز والناثحات يندبن ، يبتغين شعرهن ،
 يضربن الارض بمناديلهن ، يلمطن افخاذهن ، يرطمن رؤوسهن على الحيطان ،
 صرخات رضعاء مهجورين في البراريك القصديرية ، في حلك كل انواع النقص ،
 صرخات ملتهبة بالحمى وسوء التغذية ، صرخات نساء يضربهن حتى الموت
 رجال سكارى ويائسون ، انات وحشرجات هؤلاء النساء المبروعات وهن يقبلن
 أرجل المعتدين عليهن ، يطلبن الرأفة ، لوجه الله ، لوجه الاطفال ، لوجه البؤس
 المشترك ، صرخات مارس محمولة بريح بغض المتهمدين ، صرخات التلاميذ
 المصروعين في عز ظهيرة الاستقلالات المزورة ، مصفحات كالديناصورات في
 مواجهة اطلام صغيرة وهي تهجس في نوالد الايام ، مد وجزر الشمس ،
 ابتسامه الرجال ، صرخات رفاقي وهم بين ايدي الجلادين : تعليق ، كهرباء ،
 خنق ، صرخات اذ تتحول الصرخة لغة كونية للمقاومة ، انشودة ملحمية
 للفجيعة الانسانية ، للأمل . ايا رفاقي الوديعين ، لحمي يهذي ، وقلبي مجنون
 بحبه الكبير ، عيونكم التي لا تنسى وحناننا الذي لا يقهر .

اكتب

في منتصف الطريق ، اكتب واقفا ، عبر الملزمة والجروح .

تمر السنوات

تركض

والعقارب المقاريض تجز مواني الساعات

تسحق يد الغول

مترهلا فوق سدته

هذا شعبي يسير

وانا احيا

ثائرا .

يناير 1976